ما الحكمة فى اخراج آدم من الجنة الى دار الابتلاء

أى حكمة ومصلحة غى إخراج آدم من الجنة إلى دار الابتلاء والامتحان ؟ فالجواب ان يقال : كم لله سبحانه فى ذلك من حكمة وكم فيه من نعمة ومصلحة تعجز العقول عن معرفتها على التفصيل ولو استفرغت قواها كلها فى معرفة ذلك وإهباط آدم وإخراجه من الجنة كان يعسر كما له ليعود إليها على أحسن أحواله وهو سبحانه إنما خلقه ليستعمره وذريته فى الارض ويجعلهم خلفاء يخلف بعضهم بعضا فخلقهم سبحانه ليأمرهم وينهاهم ويبتليهم وليست الجنة دار ابتلاء وتكليف فأخرج الابوين إلى الدار التى خلقوا منها وفيها ليتزودوا منها الى الجار التى خلقوا لها فإذا وفوا تعب الدار لما عرفوا قدر نعمته عليهم بها فأسكنهم دار الامتحان وعرضهم فيها لامره ونهيه لينالوا بالطاعة أفضل ثوابه وكرامته وكان من الممكن أن يحصل لهم النعيم المقيم هناك لكن الحاصل عقيب الابتلاء والامتحان ومعاناة الموت وما بعده وأهوال القيامة والعبور على الصراط نوع آخر من النعيم لايدرك قدرهوهو أكمل من نعيم من خلق فى الجنة من الولدان والحور العين بما لا يشبه بينهما بوجه من الوجوه ومن الحكم فى ذلك أنه سبحانه أراد أن يتخذ من ذرية آدم رسلاوانبياء وشهداء يحبهم ويحبونه وينزل عليهم كتبه ويعهد إليهم عهده ويستعبدهم له فى السراء والضراء ويؤثرون محابة ومراضيه على شهواتهم وما يحبونه ويهوونه فاقتضا حكمته أن أنزلهم إلى دار ابتلاهم فيها بما ابتلاهم ليكملوا بذلك الابتلاء مراتب عبوديته ويعبدونه بنا تكرهه نفوسهم وذلك محض العبودية وإلا فمن لا يعبد الله إلا بما يحبه ويهواه فهو فى الحقيقة إنما يعبد نفسه وهو سبحانه يحب من أوليائه أن يوالوا فيه ويعادوا فيه ويبذلوا نفوسهم فى مرضاته ومحابة وهذا كله لا يحصل فى دار النعيم المطلقومن الحكمة فى إخراجه من الجنة ما تقدم التنبيهعليه من اقتضاء أسماء الله الحسنى لمسمياتها ومتعلقاتها كالغفور الرحيم التواب العفو المنتقم الخافض الرافع المعز المذل المحى المميت الوارث ولا بد من ظهور أثر هذه الاسماء ووجود ما يتعلق به فاقتضت حكمته أن أنزل الابوين من الجنة ليظهر مقتضى أسمائه وصفاته فيهما وفى ذريتهما فلو تربت الذرية فى الجنة لفاتت آثار هذه الاسماء وتعلقاتها والكمال الإلهى يأبى ذلك فإنه الملك الحق المبين والملك هو الذى يأمر وينهى ويكرم ويهين ويثيب ويعاقب ويعطى ويمنع ويعز ويذل فأنزل الابوين والذرية إلى دار تجرى عليهم هذه الاحكام وأيضا فإنهم أنزلوا إلى دار يكون إيمانهم تاما فإن الايمان قول وعمل وجهاد وصبر واحتمال وهذا كله إنما يكون فى دار الامتحان لافى جنة النعيم وقد غير واحد من أهل العلم منهم أبو الوفا بن عقيل وغيره أن أعمال الرسل والانبياء والمؤمنين فى الدنيا أفضل من نعيم الجنة ثالوا :لان نعيم الجنة حظهم وتمتعهم فأين يقاس لإلى الإيمان وأعماله والصلوات وقراءة القرآن والجهاد فى سبيل الله وبذل النفوس فى مرضاته وإيثاره على هواها وشهواتها فالإيمان متعلق به سبحانه وهو حقه عليهم ونعيم الجنة متعلق بهم وهو حظهم فهم إنما خلقوا للعبادة والجنة دار نعيم لا دار تكليف وعبادة وأيضا ف‘نه سبحانه سبق حكمه وحكمته بان يجعل فى الارض خليفة واعلم بذلك ملائكته فهو سبحانه قد أراد أن يكون هذا الخليفة وذريته فى الارض قبل خلقه لما له فى ذلك من الحكم والغايات الحميدة فلم يكن بد م إخراجه كم الجنة إلى دار قد سكنهم فيها قبل أن يخلقه وكان ذلك التقدير بأسباب وحكم فمن أسبابه النهى عن تلك الشجرة وتخليته بينه وبين عدوه حتى وسوس إليه بألأكل وتخليته بينه وبين نفسه حتى وقع فى المعصية وكانت تلك الاسباب موصلة إلى غايات محمودة مطلوبة تترب على خروجه من الجنة ثم يترتب على خروجه أسباب أخر جعلت غايات لحكم أخر ومن تلك الغايات عودة إليها على أكمل الوجوه فذلك التقدير وتلك الاسباب وغاياتها صادرة عن محض الحكمة البالغة التى يحمده عليها أهل السموات والارض والدنيا والآخرة فما قدر أحكم الحاكمين ذلك باطلا ولا دبره عبثا ولا أخلاء من حكمته البالغة وحمده التام وأيضا فإنه سبحانه قال الملائكة ( إنى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون ) ثم أظهر سبحانه من علمه وحكمته الذى خفى على الملائكة من أمر هذا الخليفة ما لم يكونوا يعرفونه بأن جعل من نسله من الانبياءئه وأحبائه ورسله وأنبيائه من يقترب إليه بأنواع التقرب ويبذل نفسه فى محبته ومرضاته يسبح بحمده آناء الليل وأطراف النهار ويذكره قائما وقاعدا وعلى جنبه ويعبده ويذكره ويشكره فى السراء والضراء والعافية والبلاء والشدة والرخاء فلا يثنيه عن ذكره وشكره وعبادته شدة ولا بلاء ولا فقر ولا مرض ويعبده مع معارضة الشهوة وغايات الهوى وتعاضد الطباع لحكامها ومعاداة بنى جنسه وغيرهم له فلا يصده ذلك عن عبادته وشكره وذكره والتقرب إليه فإن كانت عبادتكم لى بلا معارض ولا ممانع فعبادة هؤلاء لى مع هذه المعارضات والموانع والشواغل وأيضا فإنه سبحانه أراد أن يظهر لهم ما خفى عليهم من شأن ما كانوا يعظمونه ويجلونه ولا يعرفون ما فى نفسه من الكبر والحسد والشر فذلك الخير وهذا الشر كامن فى نفوس لا يعلمونها فلا بد من إخراجه وإبرازه لكى تعلم حكمة أحكم الحاكمين فى مقابلة كل منهما بما يليق به وأيضا فإنه سبحانه لما خلق خلقه تفضيلا جعل عبوديته اكمل من عبودية غيرهم وكانت العبودية افضل احوالهم واعلى درجاتهم أعنى العبودية الاختيارية التى يأتون بها طوعا واختيارا لا كرها واضطرارا ولهذا أرسل الله جبريل إلى سيد هذا النوع الانسانى يخيره بين أن يكون عبدا رسولا أو ملكا نبيا فاختار بتوفيق ربه له أن يكون عبدا رسولا وذكر سبحانه بأتم العبودية فى أشرف مقاماته وأفضل أحواله كمقام الدعوة والتحدى والإسراء وإنزال القرآن وأنه لما قام عبد الله يدعوه ( وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا ) ( سبحان الذى أسرى بعبده ) ( تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ) فأثنى عليه ونوه به لعبوديته التامة له ولهذا يقول أهل الموقف حين يطلبون الشفاعة اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فلما كانت العبودية اشرف أحوال بنى آدم وأحبها إلى الله وكان لها لوازم وأسباب مشروظة ولا تحمل إلا بها كان من أعظم الحكمة أن أخرجوا إلى دار تجرى عليهم فيها أحكام العبودية وأسبابها وشروطها وموجابتها فكان إخراجهم من الجنة تكميلا لهم وإتماما لنعمته عليهم مع مافى ذلك من محبوبا الرب تعالى فإنه يحب إجابة الدعوات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات ومغفرة الزلات وتكفير السيئات ودفع البليات وإعزاز من يستخق العز وإذلال من يستحق الذل ونصر للنظلوم وجبر الكسير ورفع بعض خلقه على بعض وجعلهم درجات ليعرف قدر فضله وتخصيصه فاقتضى ملكه التام وحمده الكامل ان يخرجهم الى دار يحصل فيها محبوباته سبحانه وان كان لكثير منها طرق واسباب يكرهها فالموقوف على الشىء لا يكون بدونه وإيجاد لوازم الحكمة من الحكمة كما ان إيجاد لوازم العجل من العدل كما ستقف عليه فى فصل إبلام الاطفال إن شاء الله أنه سبخانه أبرز خلقه من العدم إلى الوجود ليجرى عليه أحكام أسمائه وصفاته فيظهر كماله المقدس وإن كان لم يزل كاملا فمن كماله ظهور آثار كماله فى خلقه وأمره وقضائه وقدره ووعده ووعيده ومنعه وإعطائه وإكرامه وإهانته وعدله وفضله وعفوه وإنعامهوسعة حلمه وشدة بطسه وقد اقتضى كماله المقدس انه كل يوم هو فى شان فمن جملة شؤونه ان يغفر ذنبا ويفرج كربا ويشفى مريضا ويفك عانيا وينصر مظلوما ويغيث ملهوفا ويجبر كسيرا ويغنى فقيرا ويجيب دعوة ويقيل عثرة ويعز ذليلا ويبذل متكبرا ويقصم جبارا ويميت ويحيى ويضحك ويبكى ويخقض ويرفع ويعطى ويمنع ويرسل رسله من المئكة ومن البشر فى تنفيذه أوامره وسوق مقاديره التى قدرها الى مواقيتها التى وقتها لها وهذا كله لم يكن ليحصل فى دار البقاء وإنما اقتضت حكمته البالغة خصوله فى دار الامتحان والابتلاء يوضحه الوجه ان كمال ملكه التام اقتضى كمال تصرفه فيه بأنواع التصرف ولهذا جعل الله سبحانه الدور ثلاثة رارا اخلصها للنعيم واللذة والبهجة والسرور ودارا اخلصها للالم والنصب وانواع البلاء والشرور ودارا خلط خيرها بشرهها ومزج نعيمها بشفائها ومزج لذتها بألمها يلتقيان وبطالبان وجعل عمارة تينك الدارين من هذه الدار واجرى احكامه على خلقه فى الدور الثلاثة بمقتضى ربوبيته وإلهيته وعزته وحكمته وعدله ورحمته فلو أسكنهم كلهم دار البقاء من حيت أوجدهم لتطلعات أحكام هذه الصفات ولم يترتب عليها آثارها بوضحه الوجه الثلاثون ان يوم المعاد الاكبر يوم مظهر الاسماء والصفات واحكامها ولهذا يقول سبحانه ( لمن الملك اليوم لله لله الواحد القهار ) وقال ( الملك يومئذ الحق للرحمن ) وقال ( يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله ) حتى إن الله سبحانه ليتعرف إلى عباده ذلك اليوم بأسماء وصفات لم يعرفها فى هذه الدار فهو يوم ظهور المملكة العظمى والاسماء الحسنى والصفات العلى فتأمل ما أخبر به الله ورسوله من شان ذلك اليوم واحكامه وظهور عزته تعالى وعظمته وعدله وفضله ورحمته وآثار صفاته المقدسة التى لو خلقوا فى دار البقاء لتعطلت وكماله سبحانه ينفى ذلك وهذا دليل مستقل لمن عرف الله تعالى واسماءه وصفاته على وقوع المعاد وصدق الرسل فيما اخبروا به عن الله عنه فتطابق دليل العقل ودليل السمع على وقوعه أن الله سبحانه يحب أن يعبد بأنواع التعبدات كلها ولا يليق ذلك إلا بعظمته وجلاله ولا يحسن ولا ينبغى إلا له وحده ومن المعلوم أن أنواع التعبد الحاصلة فى دار الابتلاء والامتحان لا تكون دار المجازاة وإن كان فى هذه الدار بعض المجازاة فكمالها وتممها إنما هو فى تلك الدار وليست دار عمل وإنما هى دار جزاء وثواب أوجب كماله المقدس أن يجرى فيها الذين أساؤوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى فلم يكن بد من دار تقع فيها الإساءة والإحسان ويجرى على أهلها أحكام الاسماء والصفات ثم يعقبها دارا يجازى فيها المحسن والمسىء ويجرى على أهلها فيها أحكام الاسماء والصفات فتعطيل اسمائه وصفاته ممتنع ومستحيل وهو تعطيل لربوبيته وإلهيته وملكه وعزه وحكمته فمن فتح له باب من الفقه فى أحكام الاسماء والصفات وعلم اختصاصها لاثارها ومتعلقاتها واستحالة تعطيلها علم أن الامر كما أخبرت به الرسل وأنه لا يجوز عليه سبحانه ولا ينبغى له غيره وأنه ينزه عن خلاف ذلك كما ينزه عن سائر العيوب والنقائض وهذا باب عزيز من ابواب الايكات فيفتحه الله على من يشاء من عباده ويحرمه من يشاء

من كتاب شفاء العليل

ابن القيم الجوزية